الحركة الاسلامية: لا مناص من تغيير الخطاب والوجوه والسياسات

مرسل الكسيبي*

■ وقع انتصار حماس الانتخابي ما زال يدفعني الى الحديث عن الكثير مما أخفيته بين دفتي صدري يوم ان تيقنت بان هزيمة بعض الحركات الاسلامية في مواجهة السلطان العربي، لم تكن وليدة تعنت الانظمة العربية في استيعاب تجربة الرأي الاخر فقط، وانما ما لم يدركه كثير من قادة هذه الأخيرة هو ان سياساتهم وطبيعة خطابهم وتعجلهم في الهرولة باتجاه السلطة أضف الى ذلك حرص البعض على عدم التجديد والتشبيب كان وراء تواصل الكثير من الكوارث والمصاب في الجسم السياسي العربي والاسلامي.

الواقعية والاعتدال اللذين تحدثت عنهما كمطلب ملح لا بد ان يحكم سياسة حماس في المقبل من المراحل ولا سيما بعد ان وجدت نفسها اليوم في مواجهة اكراهات مدريد وأوسلو وحزمة أخرى من الاتفاقات السرية ذات الطابع الدولي الثقيل، هذه الواقعية لا تطلب اليوم فقط ممن أصبح على أعتاب ادارة الحكم والسلطة كما هو حال حماس في أيامنا هاته، بل انها مطلب ملح يمضي على كل الحركات الاسلامية التي تنشد تغيير واقع مجتمعاتها باتجاه الأفضل، سواء تموقعت هذه الحركات داخل قبة البرلمان كما هو شان اخوان مصر والأردن وتجمع الاصلاح باليمن والعدالة والتنمية المغربية...، أو تموقعت داخل أجهزة الحكم قيادة وتوجيها كما هو شان عدالة وتنمية تركيا أو المؤتمر الوطني السوداني أو حتى التجربة الايرانية.

واذا كانت هذه الصفات مطلوبة بالحاح اليوم ممن هو في سدة الحكم أو ممن هو في محل الشراكة فيها، فانه أحرى وأجدر بمن هو في حالة الاقصاء والاضطهاد والمعارضة الاجتماعية التي لم تأخذ شكل المعارضة السياسية القانونية والشرعية، ان يعرف بان هذا الاعتدال وهذه الواقعية صمام أمان للخروج بالمنطقة العربية من حالة الاحتراب الداخلي المستمر، سواء تعلق الأمر بالعلاقة مع السلطة أو تعلق الأمر بالعلاقة مع مكونات الفضاء السياسي المعارض.

ومن البديهي بمكان انه لا ينبغي على الحركة الاسلامية اليوم ان تشعر بالحرج عندما يزايد عليها خصومها يمينا أو شمالا بتهم التفريط في الثوابت، وكأن المقصود بالأمر ان يكون أصحاب الصفة الاسلامية أصحاب غلو وتشدد حتى يكتب لهم التمتع بالصفة الاسلامية النقية، ولعلني أكون واضحا عندما أقصد بذلك بعض دعاة التيارات الاسلامية المأزومة والمغالية تعسفا في فهم النصوص واطلاق الأحكام الجاهزة، كأن يدعو بعضهم من باب الجهل بثوابت الاسلام الى حرمة عدم تطبيق أحكام الشريعة السمحاء في شكل متدرج ومرحلي يراعي أقضية الناس وحاجاتهم، ولربما يشعر البعض بالحرج العظيم أمام هول الخطاب الكارثي الذي تقدمه القاعدة كنموذج للاسلام وتحاول ان تسوق من خلاله العالم والمنطقة الى حالة غليان عام تنهار على اثره دول كاملة تحت اصر ووزر الاحتلال، وهو الذي حدث فعليا على اثر غزواتها المزعومة حيث انهارت دول عربية واسلامية أمام وقع عساكر التكنولوجيا الفضائية في مواجهة جيوش عربية واسلامية تفتقد الى أبجديات سلاح الطيران.

اننا بلا شك أمام احراجات مرحلة جديدة وحساسة يمكن ان يقودنا البعض فيها من انصار الغلو اليساري أو الجنوح اليميني الى حالات انهيار جديدة تقود المنطقة العربية والاسلامية الى حالة مواجهة مفتوحة مع الغرب والقوى المتوغلة فيه، أو ربما الى حالات مواجهة داخلية تستنزف قدرات مجتمعاتنا وطاقات بلداننا في واد غير ذي زرع أو ثمر مفيد، ولعلني احذر في هذا السياق من تداعيات ردة الفعل غير المحسوبة على استفزازات اعلامية تحركها بعض اللوبيات في الغرب قصد تأليبه بكل قواه ضد كل ما هو عربي واسلامي.

واذا كنا جميعا نغار على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونرفض المساس بكرامته ودعوته وشخصه وجوهر العقيدة التي دعا لها، فانه حري بنا ان نكون من الحكمة بمكان عند التعاطي مع هذا الفخ الذي وضعه البعض على صفحات الاعلام الاسكندينافي وها هو اليوم ينتقل الى احدى الدوريات الاعلامية الفرنسية.

ومن الواقعية والاعتدال المطلوبين من الأمة والشعوب المسلمة ومن يمثلها في الحكم والمعارضة وعلى وجه الخصوص الحركات الاسلامية التي هي محل دراسة هذا المبحث ان تلتزم بأقدار عالية من الرؤية النافذة والبصيرة الثاقبة بحيث لا تؤسس سياساتها على ردود الأفعال والانسياق العاطفي امام ضغط شرائح معتبرة من الجماهير، فكما هو معلوم ان القيادة لا بد ان تكون على درجة عالية من العلم والحكمة والاتزان بحيث انها ترشد مسارات الناس وتطلعاتهم ولا تتركها للشعاراتية والمناسباتية وروح الثأر والانتقام أو غيرها من أشكال الأحكام الجاهزة على كل من اعتلى السلطة وسير الشأن العام.

انه من الثابت والثوابت ان من أسباب فشل الجماعات والهيئات والأحزاب في تحقيق مرادها الخيري، هو انسياقها غير المدروس أمام قدرات غيرها وليس أمام قدراتها الذاتية والموضوعية وقبل كل ذلك ما تتحمله البلدان والمجتمعات والأوطان، ولعلني أذكر ان تجربة الانقاذ الجزائرية شكلت اغراء جماهيريا انساقت وراءه بعض حركات الاسلام بمنطقة المغرب العربي، حتى الت الأمور الى حالة فشل ذريع سواء لأصحاب هذه التجربة في الجزائر او لشقيقات لها من دول الجوار.

انه من الواقعية بمكان ومن الاعتدال والوسطية في الطرح ألا تكلف نفس الا وسعها، وهو ما يمضي أيضا على الهيئات والجماعات كما البلدان، حيث انه لا يطلب على سبيل المثال من قادة الشأن الاسلامي من القائمين على شؤون حركات الاحتجاج الاسلامي ان يحاكوا تجربة حماس في الانتخابات كما لمح الى ذلك الأستاذ عزام الهنيدي زعيم كتلة الاخوان في البرلمان الأردني، لمجرد ان هذه الأخيرة فازت في الانتخابات بأغلبية مريحة تخول لها تشكيل حكومة ما زلنا لا نعلم الى حد الان حجم ما يحيط بها من مؤامرات ومحاصرات، كما انه لا يطلب من قادة الشأن الحركي الاسلامي معانقة تجربة العدالة والتنمية في تركيا دون اكتناز مكامن الاقتدار الاقتصادي والمالي والخبرة السياسية التي أتيحت لمثل هذا التيار.

انه محكوم على أصحاب الشأن في اتخاذ القرار لدى هذه الحركات بان يسايروا الطموح بحسب القدرات والامكانات، ولعله ان الأوان بان تراجع بعض الحركات الاسلامية المعاصرة التي تعثرت مسيرتها وتخلفت عن مسار تصاعدي مليء بالانجازات لدى حركات أخرى أخطاءها وليس اخطاء واثام حكوماتها في حق الحرية فقط

اذ انه من السهل ان نتهم بعض حكوماتنا بالتخلف والتسلط وقد يكون شان معظمها كذلك، ولكن من الصعب ان تراجع هذه الأحزاب والحركات خطابها على ضوء خصوصيات ومتطلبات الواقع العربي والاسلامي العام، فمثل هذا الواقع لا بد ان يخرج بلا رجعة من حالة الاحتراب والصراع الداخلي الى حالة البناء الجماعي والوطني الشامل الذي يتعاون فيه الجميع على النهوض بالأوطان والمجتمعات.

فالسياسات الحركية الاسلامية لا بد ان تعدل باتجاه خطاب طمانة الجماهير والحكومات وعدم اشعار ذوي الشأن بالاستهداف الذي يحملها على غلق الباب أمام ارادة الاصلاح التي يحملها جمهور الحركات الوسطية المعتدلة، كما ان هذا الاعتدال وهاته الواقعية لا بد ان تتجه صوب القوى الوطنية المؤثرة سواء كانت من اليسار أو اليمين وكذلك تجاه النخب النافذة في الوظيف العام، اذ ان هذه النخبة تعتبر تيارا صامتا لكنه يمثل عصب الدولة الهادئ الذي يستحيل دونه سير الشأن العام، ولعله من الغفلة بمكان ان يعزف الخطاب السياسي والحركي عن الاهتمام برأس المال وذوي الوجاهات الاقتصادية حيث يشكل هؤلاء فيتو قويا على كل الحكومات سواء تشكلت باتجاه المحافظة أو باتجاه الحراك الاصلاحي العام.

ومن مقتضيات المرحلة التي أود ان أكون قاسيا فيها الى حد العظم مع من يمثل قادة الحركات الاسلامية الوسطية في بلاد العرب، قضايا تجديد الدماء وتشبيب الهياكل والأطر، حيث ان من أسرار نجاح عدالتي وتنميتي تركيا والمغرب في التعاطي مع الشأن العام وجود وجوه شابة من الجيل الثاني على رأس هذه الحركات، ولعل أسماء أردوغان وغول وسعد الدين العثماني خير دليل على ذلك.

ان الحركات الاسلامية يوم ان أوكلت أمرها للأسماء الكبيرة بحجم حسن الترابي سنا وميراثا وتاريخا دون ان تجدد دمها القيادي وجدت نفسها أمام حالة صدام مع سنن الله في الكون، حيث ان التداول غلاب ومن عطله عطل ارادة الله في الجماعات والمجتمعات

ولذلك فان رجلا بحجم اربكان يجد نفسه اليوم بعيدا عن الأضواء ولكن مشروع الاسلام المتدرج والعقلاني يسير في تركيا على انغام العضوية الكاملة في الاتحاد الأوروبي، وكذلكم شان الطبيب الجراح الخطابي الذي غادر رئاسة حزبه في العدالة والتنمية المغربية ليسلم المشعل للدكتور العثماني وهو رجل في اواسط العقد الخامس

ومحصلة الأمر عندئذ ان الحركة الاسلامية العربية المعتدلة والتي تحرص على وسطية المنهج وتدرجه في تلبية حاجات الشعوب وأقضيتها، تجد اليوم نفسها اذا أرادت فعلا النجاح في مسار الاصلاح الداخلي والوطني وفي النهوض بواقع الأمة ملزمة ولا مناص من ذلك بتغيير خطابها وسياساتها ووجوهها اذا أرادت ان تختزل على أبنائها وشبابها مسيرة العذابات والآلام التي لم تتحملها المعارضات العربية الأخرى، ولكن حان لنا التساؤل عن حقيقة هذه العذابات وجوهرها فيما اذا كانت فعلا مجرد ابتلاءات اقتضتها الارادة الالهية، أم انها أكبر من ذلك تعود الى حيث اتجه الخطاب الالهي «قل هو من عند انفسكم» فهلا وقعت المراجعة بل قل المراجعات؟

* كاتب واعلامي من تونس
reporteur2005@yahoo.de

هل فقدت الدانمارك عذريتها؟

منير عبد المجيد*

■ ما حدث في الدانمارك ليس حدثاً عرضياً، بل حالة لها علاقة بالتطورات العالمية، سواء أكانت الخريطة الجيو ـ سياسية الجديدة، ونمو الحركات الأصولية، أم التغيرات الديموغرافية السكانية، مروراً بغول العولمة.

تفاصيل ما حدث في العالم خارج المملكة الدانماركية لا حاجة للبحث فيها هنا، لدرايتي ان القارئ الكريم على معرفة مسبقة بها.

لكن دعوني أسوق عرضاً لبعض المنعطفات التاريخية في البلاد، والتي تُوجت بوصول حزب يميني متشدد، اتهم بالعنصرية غير مرة، باحتلال كرسي صاحب القرار، كونه يشكل القاعدة البرلمانية للحكومة اليمينية الحالية.

دخل الاسلام البلاد بوفود العمال الأتراك والعرب منذ منتصف الستينات من القرن الماضي. هؤلاء جاءوا بسبب الحاجة الماسة الى اليد العاملة الأجنبية حينذاك. ولا جديد هنا في المسألة، لان موجة الهجرة هذه غطت اوروبا الغربية عامة.

تغيرت صورة الشارع الدانماركي على نحو مفاجئ، بحضور عائلات هؤلاء العمال. وكانت هذه الحجر الأساس في تكوين المجتمع متعدد الأعراق، الذي بدوره أثار ذعر اليمين الدانماركي.

وبالرغم من ان انشاء حزب التقدم، بزعامة المحامي مونس غليستروب، في بداية السبعينات ودخوله الصاعق الى البرلمان، لم يكن في البداية سوى حركة احتجاج على ارتفاع نسبة الضرائب، في مجتمع الرفاه الدانماركي، الا انه سرعان ما جعل الاسلام والمسلمين في الدانمارك عدوه الأول.

موجة الهجرة الثانية جاءت في مطلع الثمانينات، نتيجة الحرب الأهلية اللبنانية والحرب العراقية ـ الايرانية، ومن ثمة حرب البوسنة واقليم كوسوفو والصومال. وهو ما عُرف بموجة اللاجئين.

معاداة المغتربين واللاجئين ازدادت بزيادة عدد هؤلاء (200 ألف مسلم يشكلون نسبة 3% من اجمالي عدد السكان)، خاصة بعد ان نسخت الأحزاب الاخرى الكبيرة بعضاً من برنامج حزب التقدم المتطرف، مما دفع بمونس غلستروب (زعيم الحزب) الى المغالاة والمزايدة واستعمال نبرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البلاد. «يجب ارسال المحمديين (هكذا يدعو المسلمين) الى الخارج، تماماً كما نرسل نفاياتنا». احدى عباراته الشهيرة عام 1990.

انشقاق بيا كيرسكو عام 1995 عن حزب التقدم وتشكيلها حزب الشعب الدانماركي أفقد البلاد عذريتها الى الأبد. هنا يختصر مونس كامره (ممثل البرلمان الاوربي عن حزب الشعب الدانماركي) سياسة حزبه على هذا النحو عام 1999 «المسألة هي ان الاسلام يعادي مجتمعنا، وهدفه تخريب نظامه»، ويضيف الى ذلك العام 2001 ما يلي: «المسلمون يتغلغلون في كل الدول الغربية ـ بعضهم يتحدث الينا بنبرة لطيفة، ولكنهم ينتظرون الوقت المناسب حتى يصبح عددهم كافياً كي يقتلوننا».

في العام 2001، وبعد هجمات 11 ايلول، شهدت البلاد عودة اليمين الى صدارة الحكم وهزيمة الحزب الاشتراكي الديمقراطي. وعودة اليمين لم تكن لتتحقق دون مساعدة بيا كيرسكو (نال حزبها 13% من أصوات الناخبين) التي تترك بصماتها بقوة على أي قرار أو خطوة تتخذها الحكومة.

والحكومة هي تآلف من الحزبين الليبرالي (الذي يتزعمه رئيس الوزراء اناص فو راسموسن) وحزب المحافظين. هذا التآلف شكل حكومة أغلبية بعد ضم أصوات حزب بيا كيرسكو.

اثر هذا التحالف، الذي يذكر بتحالف يورغ هايدر اليميني المتطرف والمحافظين في النمسا في صحيفة «يولاندس بوستن».

أرى ان الموقف الرسمي الدانماركي المتردد في ادانة هذه الرسومات هو الذي أدى الى هذا التصعيد الحاد. فمن جهة لا يمكن للحكومة التدخل في تحديد وتقزيم حرية الصحافة. هذه نقطة حساسة تغيب، مع الأسف، عن أذهان الكثيرين، خاصة الذين ما زالوا يطالبون الحكومة، لا بل الملكة، بتقديم الاعتذار ومعاقبة الصحيفة. حرية الصحافة هنا لا حدود لها، والحكومة لا تستطيع بتاتاً التدخل ومنع صحيفة أو مقال ما، حتى لو أدت ممارسة هذه الحرية الى المس بمشاعر فئة من الناس ودياناتهم. هناك نظام قضائي، الذي هو بدوره مستقل تماماً، يبت في مثل هذه التجاوزات.

ومن جهة اخرى فان رفض رئيس الوزراء استقبال ممثلي البعثات الدبلوماسية الاسلامية كان خطيئة، حاول الأخير الاعتذار عنها بحذر في خطابه للأمة عشية اعياد العام الجديد. وهو يحاول جاهداً الآن التركيز على ان خطوة الصحيفة لا تعكس سياسة الحكومة، أو الموقف الرسمي الدانماركي، وذلك في عدة مناسبات خلال الأيام القليلة الماضية. وفي استقباله السلك الدبلوماسي المعتمد مؤخراً أوضح موقفه الشخصي من هذه الرسومات، وقال انه لن يقوم بما قامت الصحيفة به. وسواء جاء هذا الرد متأخراً أم لا، فانه يعبر عن الموقف الدانماركي الرسمي. الحكومة النرويجية، على سبيل المثال، سارعت على الفور بادانة نشر الرسومات ذاتها في صحيفة نرويجية.

تحالف الحكومة مع حزب الشعب الدانماركي المتطرف، الذي يصعب أحياناً تجرعه، يرتبط بأصول اللعبة الديمقراطية على الطريقة الغربية، والرغبة في الوصول الى السلطة، حتى لو اضطر الأمر الى التحالف مع الشيطان عينه في بعض الأحيان، وهو ذاته الذي يسمم المناخ العام في البلاد، ويفوت الفرصة لدمج الجاليات المسلمة لتصبح جزءاً لا يتجزأ من لحمة المجتمع الدانماركي، وهو الذي أدى الى تطاول الصحيفة الى هذا الحد.

وتطاول الصحيفة يبدو وكأنه بات بداية تحقيق نبوءة صامويل هنتينغتون الشهيرة بمقولة تصادم الحضارات (الغرب والاسلام)، أو هذا ما يريده البعض على الأقل، بعد ان أقدمت العديد من الصحف في كل انحاء اوروبا الغربية بنشر هذه الرسومات الكاريكاتيرية، في خطوة لم يسبق لها مثيل.

عدم نشر الرسومات هذه في الصحف الأمريكية ليست محاباة للاسلام أو الخشية من رد الفعل الاسلامي، فمتى كانت أمريكا تعير ذلك بالاً؟ بل هي بعد نظر (أعترف بذلك)، واستفادة من تجارب سابقة، أذكر منها انتهاك حرمة الدين الاسلامي غير مرة في معتقل غوانتانامو (لماذا لم يتحرك الشارع العربي حينذاك، كما يفعل الآن، ضد أمريكا؟).

لكن دعوني أضيف ان الصورة في البلاد ليست قاتمة تماماً، فالى جانب الانتقادات التي تنهال على الحكومة الدانماركية من كل الجهات، هناك في الداخل حركة لا يستهان بها، تقودها طليعة المثقفين الدانماركيين الذين يطالبون الرأي العام باستعمال لغة تخاطب ونبرة نقاش حضارية عوض تلك البدائية السائدة الآن. أما من الخارج فهناك انتقادات مستمرة من الدول الاوروبية وبقية الدول الاسكندنافية (خاصة من السويد)، تستغرب حدة الهجمة الشرسة، بقيادة حزب الشعب، على الأقليات الدينية والعرقية في البلاد، ومدى قبول الحكومة الحالية هذه النبرة.

البضائع الدانماركية تُقاطع في كل مكان، استجابة لمقاطعة الدانمارك اقتصادياً. وأضيف هنا ان هذه المقاطعة لن تكون وبالاً على اقتصاد البلاد، كون اجمالي الصادرات الى العالم العربي والاسلامي يبلغ فقط 1,1% من مجمل الصادرات الدانماركية.

والسؤال هو حالياً، ان كانت هذه الخطوة هي الصحيحة، في حل أزمة مستعصية كهذه؟

صحيح ان اوروبا استعملت سلاح المقاطعة الاقتصادية بنجاح كبير ضد النظام العنصري في جنوب أفريقيا منذ عشرين سنة. أما مقارنة هذه الحالة (المقاطعة الآن) بمقاطعة جنوب أفريقيا فاجحاف وخطأ يتميز بنقص النظر. الدانمارك، ما زالت، تعد من طليعة الدول في العالم حين يتعلق الأمر بمساعدة الدول الفقيرة. لاحظوا مثلاً المساعدات الكبيرة التي تقدمها الى السلطة الفلسطينية. ومن الغريب حقاً، ان نرى، على نحو يومي، شباناً من قطاع غزة يهددون ويتوعدون بالقتل والتدمير لكل ما هو دانماركي، ويحرقون الأعلام الدانماركية المحاكة على نحو رديء، بدل ان يعبروا عن سخطهم واحتجاجهم على الصحيفة بأساليب أكثر تحضراً.

قد يكون الضغط باستعمال الأقنية الدبلوماسية هو الحل الصحيح، والذي يليق بالدول التي تحترم نفسها. وقد تكون المقاطعة الاقتصادية شديدة الفعالية، لكن الأمر السيئ في هذا السياق هو من شقين: الأول هو ان هذه المظاهرات المتشنجة، تدفع بالدانماركيين، والغرب عموماً، الى أحضان اليمين المتطرف. وهذا بدوره يؤذي بشكل مباشر ملايين المهاجرين المسلمين في اوروبا.

وكي لا يسيء أحد فهمي هنا، أقول ان التظاهر ضد مسألة ما حق مشروع، لكن استعمال لغة التهديد والقتل، وحرق السفارات والقنصليات لا تعطي أية نتيجة، وهي ردات فعل همجية وبدائية مُسيرة من قبل الراديكالية الاسلامية، والتي لا تختلف أجندتها، من حيث المبدأ، عن أجندة اليمين الدانماركي المتطرف. التظاهر باستعمال لغة العقل والاقناع هو ما نريده، وهي اللغة الوحيدة التي يمكن ان نقنع بها العالم. الأمر الثاني هو المناداة بمقاطعة مهرجان ثقافي متعدد الأبعاد خُصص لتقديم الشرق الأوسط باسم «صور من الشرق الأوسط». المشاركة في هكذا مهرجان تأكيد على ان في بلادنا حركة ثقافية عميقة عمق تاريخ المنطقة. ومن ينكر ان وجه حضارة أمة هو ثقافتها؟

دعونا نُري الدانماركيين ثقافتنا.

* ناقد سوري مقيم في الدانمارك

من الذي أساء إلى الإسلام غير المسلمين؟

حسني ابو المعالي*

■ تتناسل تداعيات الحملة على الغرب على ضوء الرسوم التي أساءت فيها إحدى الصحف الدانماركية للرسول الكريم ـ ص ـ فمن تنديد هنا ومظاهرات هناك إلى حرق بعض السفارات الأوروبية في دمشق وبيروت، أخذت الأحداث تسير باتجاه حرب الشرق والغرب، وكما يقال بصدام الحضارات أو صراع الأديان بين الإسلام والمسيحية، وفي واقع الأمر أعتقد بان الشتيمة أو الإساءة من هذا النوع لم تكن تضر في هذه الحالة إلا بالصحيفة ولا تدين إلا أصحابها لو تم تجاهلها وإهمالها عملا بما ورد في المثل العربي : ـ منطوق الانسان يشبهه ـ أو كما قال الشاعر العربي: ـ وكل اناء بالذي فيه ينضح.

علما بان الصحيفة المعنية هي من الصحف الهامشية في البلد لا تختلف عما نسميها بصحف الرصيف الصفراء، ولا تمثل لسان حال الدولة الدانماركية. وكأني بها راهنت على هذا الأسلوب الرخيص من أجل ان تنتزع الشهرة على حساب المسلمين والعرب المعروف عنهم انهم شعوب ردود الأفعال فربحت الرهان.

والشتيمة نوعان: ـ مباشرة وغير مباشرة وما وردته الصحيفة الدانماركية التي حاولت من خلال تلك الرسوم الإساءة إلى شخص الرسول ـ ص ـ هو من الشتائم المباشرة التي تكشف دائما عن ضعف أصحابها وجهلهم، ولو لم تكن شخصية الرسول لها مقامها التاريخي والانساني عالميا لما استهدفها ضعاف النفوس، فالشجرة المثمرة معرضة دائما للرمي بالحجر، أما الإساءة أو الشتيمة غير المباشرة فقد مارسها المسلمون انفسهم على الاسلام، وكان من المفترض ان يبتعد المسلمون والعرب عن ذلك التصعيد الذي شهدناه عبر ممارسات الشغب نتيجة الغضب من جراء التصرف المشين للجريدة الدانماركية، الشيء الذي قد ينعكس سلبا على الإسلام والمسلمين، وكان حريا بالأقلام العربية والمسلمة الرد على الصحيفة نفسها بأسلوب حضاري واع بمجموعة من المقالات النقدية تفند مزاعم الصحيفة وتلقي الضوء على مزايا شخصية الرسول ورسالته الكريمة التي جاء بها من أجل خير البشرية ـ «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» ـ، ويكفي ان تأخذ الجالية المسلمة في الدانمارك مسؤولية مقاضاة الجريدة رسميا بالطرق القانونية بعيدا عن تلك الضجة، وعوض ان نمارس رد الفعل العشوائي على خبر كهذا كان لا بد ان نبحث عن الأسباب الحقيقية التي دفعت صحيفة أوروبية لان تسيئ إلى رمزنا الاسلامي العظيم بالطريقة اللااخلاقية، فالعالم الغربي يرى صورة الرسول من خلال ما نرسمه نحن عبر سياساتنا التعسفية على شعوبنا، وتعاملنا غير الصادق تجاه إخواننا، ومن خلال سلوكنا الغريب مع بعضنا البعض في الحسد والنميمة، لقد تفشت بيننا نزعة المصالح الشخصية على حساب القيم والمبادئ بعيدا عن مصلحة الأمة، انها أفعالنا وممارساتنا السلبية تجاه من يختلف معنا في الرأي حتى من أهلنا، نمارس الغش والخداع بدل الود والمحبة، فنحن أول من أساء الى الرسول ـ ولكن بشكل غير مباشر وذلك من خلال خلافاتنا مع بعضنا، أسأنا الى الإسلام عندما توزعنا شيعا وفرقا وجماعات على أساس طائفي، وتقاتلنا ضد بعضنا على أساس تلك الهوية الطائفية، وشتمنا الإسلام عندما حكمنا بغير العدل وازداد الفقراء لدينا فقرا والأغنياء ازدادوا تجبرا وفاحشة، أسأنا إلى الإسلام عندما هجرنا احترام الرأي الآخر ومارسنا الاستبداد والقهر بعيدا عن ثوابت الأخلاق والتعامل بمبدأ التسامح والتكافل والتضامن، اعتدينا على الرسول ـ ص ـ عندما اتخذنا من مالك بن انس وأبي حنيفة وجعفر الصادق وزيد بن علي وغيرهم قدوة لنا بشكل مبالغ فيه وتطرفنا لهم على حساب مقام الرسول بل وتناسيناه في كثير من الأحيان. فلنحاسب انفسنا أولا قبل ان نحاسب الدانمارك والغرب، لاننا أول المسيئين الى الرسول والاسلام معا، فقد اصبحنا اعداء انفسنا عندما نشرنا غسيل خلافاتنا علنا على الملا، يقول أحد الامثال الشعبية: «أخوك في الحرفة عدوك»، وهذه هي حقيقتنا فلم نجد شاعرا عربيا لم يتكلم بالسوء تجاه شاعر آخر، ولم نجد فنانا تشكيليا، أو مسرحيا أو موسيقيا لم ينعت زميله بأتفه النعوت ولم نجد سياسيا عربيا لم يقف بالمرصاد ضد معارضيه ولم يمارس معهم القمع والتنكيل حتى القتل، فهل هذا ما جاء به الإسلام ؟ أستحضر هنا مقولة على لسان ـ كات ستيفنس ـ المسيحي الذي أسلم على هدي القرآن حين قال: «الحمد لله الذي عرفني على الإسلام قبل المسلمين»، وقبله الشيخ العلامة والمفكر الإسلامي محمد عبده حيث قال: «وجدت مبادئ الإسلام مع غير المسلمين ولم أجدها مع المسلمين».

ولهذا لا يصح ان نحاسب دولا بجريرة أفراد عنصريين من الغرب لم يتعرفوا على جوهر الاسلام، فليس كل من هو غربي هو بالضرورة عنصري، وليس كل من هو مسلم يكون انسانا صالحا، أتساءل هنا من احتضن ملايين المسلمين المضطهدين من قبل حكوماتهم المستبدة غير الغرب، ومن الذي أسكنهم وآواهم مع أطفالهم ونسائهم ودفع لهم ولذويهم المعونات الإجتماعية في أيام الشدة غير الغرب، ومن جهة أخرى أقول: من الذي أساء إلى الرسول وإلى الإسلام غير أهله وملته وحتى الذين اختيروا كخلفاء على المسلمين باسم الإسلام لم يسلم الدين من شتيمتهم، وليس خافيا على أحد ما ينسب إلى الوليد بن عبد الملك عندما مزق المصحف الشريف حيث قال مخاطبا إياه:

تهددني بجبار عنيد
فها انا ذا بجبار عنيد ..
وإذ لاقاك ربك يوم حشر
فقل يا رب مزقني الوليد

فكيف سيرسم الغرب صورة جميلة عنا في ظل تاريخنا الدامي وحاضرنا الاستبدادي؟

* كاتب وفنان تشكيلي
من العراق مقيم بالمغرب

خطأ يجب تصحيحه

تيسير مشارقة*

■ لفوز حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في الانتخابات التشريعية الماضية دلالات كبيرة، أولها ان الشعب الفلسطيني قد أفاق على بؤس التسويف الإسرائيلي ـ الامريكي والاعتراف المجاني بـ«دولة إسرائيل» (إسرائيل اعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية ولم تعترف بدولة فلسطينية)،كما ان الشعب المقاوم الذي خبر التقلبات الكثيرة، ولمدة تزيد عن أربعين عاماً، رفض ان تبقى القيادة الوطنية على سدة الحكم وهي التي لم تحقق شيئاً على صعيد الاستقلال والتحرر الوطني، ووصلت الأمور بها إلى الفساد والفلتان بمختلف صنوفه .

غيّر هذا الشعب من مزاجه الوطني نحو قيادة جديدة تلتزم بالمقاومة وتبدي (شفاهة) حرصها على المشروع الوطني وإدارة السفينه بطريقة فيها نبرة تدعو إلى نظافة اليد واللسان.

أما انعكسات ذلك على الوضع الداخلي والإقليمي العربي، فان التحولات الداخلية قد تحفز القوى الوطنية والعلمانية بتوحيد الصفوف وخلق اصطفافات جديدة والتخلي عن الشرذمة والفئوية الحزبية لصالح الهم الوطني العام.. فعلى سبيل المثال على الأحزاب التي لم تحقق نجاحات تشريعية تذكر ان تلتم جميعا في بوتقة واحدة حزبية ذات لون وسطي أو يميني أو يساري.

فوز حماس الساحق سيصهر شظايا اليسار في بوتقة واحدة (هذا إذا تحققت الإرادة)، وربما يدفع فتح لإعادة بناء ذاتها في صيغة (حزبية ـ حركية) تقود كل الأفراد أصحاب التوجّه الوطني العريض.

باختصار، سيقود فوز حماس إلى اصطفافات جديدة وانقسامات وانهيارات حزبية هنا وهناك.

أما انعكسات هذا الفوز على المستوى العربي الإقليمي، فان هذه الانتعاشة للمد الديني اليميني ستدفع بالأمور إلى التبلور لصالح الجماعات الدينية واليمينية المتطرفة. وسيدفع ذلك بالقيادات التاريخية والانظمة الشمولية إلى حافة الهاوية، ما لم تقم بحماية ذواتها ومصالحها بالعنف الداخلي والبطش والسيطرة المتغوّلة والحرب الأهلية.

أما على الصعيد الإسرائيلي، فان هذا الانتصار لحماس يعني ان على إسرائيل ان تتراجع عن ممارساتها السابقة، فالجيل الجديد يطالب باستحقاقات السلام ونتائج سريعة، ويرى ان هناك «خطأ يجب تصحيحه» وان لا اعتراف باسرائيل كدولة محتلة وان عليها ترسيم حدودها أولاً، وان تتخلى عن وهم الاحتفاظ بالضفة والقطاع والقدس، وان تفكر ملياً بالعودة إلى قرار التقسيم (181) الذي يحل المسألة الفلسطينية وفق المعيار الدولي.

قد يحدث شرخ في العلاقة بين المواطن الفلسطيني (الحر والعلماني والديمقراطي والذي يكره التفرد والشمولية)، والقيادة السياسية الجديدة التي تلبس العباءة الدينية وتطمح بالشمولية وإعادة عقارب الساعة إلى الوراء دون وزن للتطورات التاريخية في بنية الذهنية الوطنية الفلسطينية.

أما المثقف الموضوعي، فهو هامشي وسيبدأ بالتململ والتلوّن، أو العزلة على عزلته السابقة، وستدخل الميدان فئة جديدة من المثقفين الذين سيبدأون بالتنظير للمشروع الديني كخلاص من التراجع والفساد والفوضى.

كل الاعتقاد بان حركة حماس ستواجه بتحديات كثيرة ومنها الموروث الديمقراطي الفلسطيني، وديمقراطية غابة البنادق، وحركة فتح ذات الإرث التاريخي في قيادة حركة المقاومة الفلسطينية المعاصرة. ستتراجع الحريات الديمقراطية وسيعاني الشعب من وطأة التغيير القيصرية، وسيبدأ دعاة حماس التجول في الحواري والشوارع والطرقات يهددون الليبراليين، ودعاة حركة التنوير والدمقرطة وربما تبدأ محاكم التفتيش.

متسلحون بالسلطة (أداة القمع)، سيعمل الحماسيون على إقصاء وتنظيف البيت الداخلي على مدى أربعة أعوام، يستطيعون خلالها من إحكام الهيمنة والسيطرة لتحقيق الفوز القادم لأربعة أعوام جديدة، وهكذا دواليك، ليدخل الشعب الفلسطيني في دوامة جديدة من التسويف والمماطلة الدولية والإسرائيلية بحجة أو بأخرى.

ولكن هذا الفوز (الحماسي) له إيجابية كبرى، قد يدفع حركة فتح لتنظيم صفوفها على أسس حزبية معاصرة تمكنها من تحقيق فوز لاحق إذا ما قدر لها ذلك.. وربما يدفع حركة فتح لإقامة تحالفات جديدة مع قوى اليسار والقوى الليبرالية في جبهة عريضة وطنية وعلى اسس من الشراكة والهم الوطني العام.

ولفوز حماس ايجابية كبرى أخرى، قد تدفع الإسرائيليين إلى إعادة الحساب في مشروع الغطرسة والموت وإسرائيل الكبرى والاحتلال لأراضي الـ 67، وربما يبدأ المتنورون العقلاء منهم بالالتفات لقرار التقسيم الدولي (181) الذي يقسم فلسطين دولياً بين دولتين فلسطينية وإسرائيلية بديلاً عن إسرائيل الهلامية والاحتلالية وكخلاص من الموروث الحالي الذي سيؤدي بالمشروع الصهيوني إلى التهلكة.

* كاتب من فلسطين